الرياض

حروف و افكار

مبادرة السلام الشاملة

منح الصلح

أدخلت إسرائيل القمة العربية المقرر انعقادها في بيروت في 27و 28آذار في حساباتها منذ الآن. وانعكس ذلك في ارتفاع الوتيرة التي تعمل فيها من أجل إيجاد واقع جديد داخلها قبل أن يجتمع الملوك والرؤساء العرب في بيروت فيتخذوا قرارات من النوع الذي يشد العرب بعضهم إلى بعض ويجمعهم وراء أهداف محددة تؤثر في ميزان القوى داخل فلسطين وخارجها في المنطقة العربية والعالم.

إنها تتحرك هذه الأيام بسرعة ملحوظة بادئة بإبقاء الحصار على عرفات ولكن مخففاً. وقد جاء هذا القرار بديلاً عن رفع الحصار عنه كما كان متوقعاً. ذلك أنه بالرغم من أن السلطة الفلسطينية نفذت اعتقال قتلة وزير السياحة الإسرائيلي رحبعام زئيفي، أبقت إسرائيل على الحصار في رام الله، مرفقة ذلك باشتراط حصول عرفات على إذن شخصي معطى له من شارون يمكنه من حضور القمة العربية.

وتعددت المؤشرات على الحال النفسية التي يعيشها حالياً القادة الإسرائيليون. ومنها اطلاق النار من قبل الجيش الإسرائيلي على رئيس المجلس التشريعي أحمد قريع الذي كان قد حاور في باريس رئيس الكنيست ابراهام بورغ.

بدلاً من أن يفهم الإسرائيليون الجانب الإيجابي في مبادرة ولي العهد السعودي الأمير عبدالله بن عبدالعزيز، وهو كون العرب على استعداد حقيقي للسلام، استمروا في حصار شخص عرفات في محاولة صريحة لتغيبه عن قمة بيروت.

وواضح من هذه التصرفات أن ترحيبهم اللفظي بمبادرة الأمير عبدالله لم يكن جدياً. فالتدابير الواقعية لا تتفق مع وصف بيريس للمبادرة بأنها إيجابية.

لكأن إسرائيل تضمر خوفاً حقيقياً من مؤتمر له مصداقية عالمية كاملة تجلت في التعليقات الدولية الإيجابية على طروحات الأمير عبدالله. وزاد من مخاوفها الترحيب العربي الواسع بها بما أعطاها قوة معنوية ومادية تقلق الإسرائيليين وتفضح نياتهم المخبأة وراء القبول الشكلي بالمبادرة السلمية غير المسبوقة في حجمها وواقعيتها بين جميع الطروحات السابقة والمماثلة.

تكشف التصرفات الإسرائيلية عن سلبية كبيرة تجاه كلمة سلام التي طالما استخدمتها الديبلوماسية الإسرائيلية للقول أنها الضحية المسالمة للعرب الرافضين إلا أن تكون الحرب وحدها هي الحكم.

ولعل الميزة الأولى لمبادرة الأمير عبدالله هي هذه الناحية بالذات، ناحية كشف التناقض بين الكلام الإسرائيلي الإيجابي وسياسة القتل والحصار والتدمير والجرافات المستمرة في هدم البيوت الفلسطينية واقتلاع الأشجار من جذورها وتحويل كل ما هو فلسطيني إلى ركام غير قابل للاستخدام الإيجابي، إلا عندما تضع إسرائيل يدها عليه.

إن إسرائيل تشعر هذه المرة أن قمة بيروت تحظى بالترحيب الواسع في الدول ذاتها التي كانت تدعم إسرائيل وربما لا تزال حتى الآن. ومما يحرجها نجاح ولي العهد السعودي الأمير عبدالله بن عبدالعزيز باقناع العالم بأن العرب على استعداد كامل لإعطاء السلام لدولة إسرائيلية إذا كانت هذه الدولة مستعدة للقبول بدولة عربية فلسطينية إلى جانبها والانسحاب من كل الأراضي العربية المحتلة إلى خط الرابع من حزيران 1967.وهو ما يعيد إلى لبنان وسوريا حقوقهما الكاملة المغتصبة.

في مقابل التفاؤل الشامل اليوم في مجمل الأوساط التي تريد السلام لكونه سلاماً، تقدم إسرائيل صورة غير مقنعة للعالم بقولها إنها تسمح لعرفات بالتنقل فقط داخل رام الله وتربط سفره إلى الخارج بإذن شخصي من شارون.

إنها الروح المادية التي اتهم بها اليهود تاريخياً والتي تسببت بالموجات اللاسامية في الماضي تعود فتجد لها رموزاً في أشخاص ساسة إسرائيل الحاليين، أو غالبيتهم على الأصح. وهذا ما سيدفع داخل أميركا نفسها متحمسين جدداً لإنجاز سلام معقول ولو غير عادل في عيون العرب والمنصفين من رجال السياسة الدولية العارفين بحقائق النزاع القائم منذ مدة بعيدة من الزمن بين العرب والصهاينة.

لقد تقدمت مقترحات لجنة تقصي الحقائق الدولية برئاسة السيناتور الأميركي السابق جورج ميتشل على طروحات أخرى أريد بها أن تكون حلاً للنزاع العربي - الإسرائيلي. والسبب هو شعور الأوساط الدولية بأن هذه المقترحات، وإن كانت تعطي إسرائيل أكثر مما تستحق من حصة، إلا أنها يمكن أن تنال قبولاً عربياً بها. وهذا الشعور بواقعية مقترحات لجنة ميتشل خلق لها أنصاراً دوليين في كل نواحي العالم. وقد يكون هذا يحصل للمرة الأولى، لأنه كان دائماً هناك فارق واسع بين المشاريع الدولية والإقليمية، سواء كانت عربية أو إسرائيلية، وقابلية التحول إلى حقائق على الأرض.

كان هناك دائماً شعور عند الحياديين أو غير المنخرطين انخراطاً مباشراً في النزاع أن شيئاً لن يتم في موضوع فلسطين لأن الفروق الشاسعة بين ما يريده العرب وما يريده الإسرائيليون، وبين ما يريده الاثنان وإمكانية تحقيقه بالفعل.

ولكن مجيء اقتراحين للحل أحدها عربي من رجل قوي وذي مصداقية في واحدة من أهم الدول العربية، والثاني من وسيط دولي أميركي كبير سبق له أن حل نزاعاً مزمناً في بلد أوروبي هو إيرلندا، أضفى على الحل المعد أو المفكّر به في فلسطين صفتي المقبولية والواقعية في الوقت نفسه، مما أوجد الآمال شبه الحاسمة بحل ممكن لقضية من اعقد قضايا العالم، رغم الماضي الطويل في المحاولات الفاشلة.

إن الحق العربي في فلسطين كان دائماً يجد ملابسات تمنع تحوله إلى واقع قائم على الأرض. فأثناء الانتداب البريطاني على فلسطين جرت محاولات عديدة للتوصل إلى اقتسام الأرض الفلسطينية بين طرفين، ولكن هذه المحاولات كانت تصطدم دائماً بالفشل حتى أعلن حاكم فلسطين الإنكليزي أيام الانتداب البريطاني أن الخلافات لا يمكن أن يحل لأنه بين حق وحق، وحق العرب وحق اليهود.

وأشاع هذا التشخيص للنزاع احباطاً لا عند العرب واليهود فحسب، بل عند الدول والأطراف ذات المصلحة بوجود سلام في المنطقة.

فأي حل يمكن أن يكون بين طرفين كلاهما مؤمن بأنه صاحب الحق الكامل في فلسطين كاملة؟

ومن أقوال الرئيس اللبناني الراحل شارل حلو في باب الإعراب عن يأسه من وجود حل في فلسطين: "كيف يمكن التوفيق بين طرفين مختلفين على الأرض وعلى السماء معاً."

ولكن منذ مؤتمر مدريد بدأ تفاؤل في الأوساط الدولية بإمكانية إيجاد سلام قابل للدوام بين الفلسطينيين والإسرائيليين.

وعندما قبلت القيادة الفلسطينية برئاسة أبو عمار بالحل المسمى اتفاقية أوسلو، ظهر شعور واسع في الأوساط الدولية بإمكان قيام فلسطين، فلسطين عربية وأخرى يهودية.

إلا أن الغطرسة الإسرائيلية من جهة وتمسك الفلسطينيين بهويتهم وحقهم وأرضهم من جهة ثانية أبقيا الصراع محتدماً. وكان يمكن أن يؤدي هذا الاحتدام إلى طي مشروع السلام في فلسطين التاريخية بشكل نهائي لو لا الوقفة الفلسطينية الشجاعة والذكية ضد الواقع الإسرائيلي المدعوم دولياً، وهو ما أوصل بعد نضال قاس إلى الحالة التي نحن موجودون فيها الآن، حيث هناك على أرض واحدة شعبان وشرعيتان.

وتقوم مساعي ميتشل، رغم إنحيازها إلى إسرائيل على تأكيد وجود حق شرعي للجانب الفلسطيني من النزاع. وهذا مما جعل لهذه المساعي أثراً واقعياً يتجلى في حالة الأمر الواقع الموجودة الآن حيث لا يزال عرفات يمتلك القدرة على قولة "لا" في وجه نزعة الإسرائيليين لاحتكار الأرض الفلسطينية.

إن الفضل لبقاء المشروع الفلسطيني حياً هو بالدرجة الأولى للنضال الطويل والقاسي والمليء بالبطولات الذي خاضه الشعب الفلسطيني المؤيد بمشاعر الأمة العربية. فلا فارق بين كلمتي فلسطيني وعربي في صدق الرفض لمشروع إسرائيل العدواني على فلسطين.

والفلسطينيون ليسوا وحدهم الآن. فالعرب المجتمعون بعد أيام في بيروت هم قوة مادية ومعنوية كافية لايصال الفلسطينيين إلى حقهم السليب في فلسطين.

ولا يشك عربي في أن شعور الفلسطيني بفلسطينيته أقوى من شعور اليهودي بأن هذه الأرض له فعلاً وأنه صاحب الحق فيها. فالإسرائيلي يعرف أنه كان حتى أمس القريب ألمانياً أو إيطالياً أو حبشياً أو بلغارياً أو روسياً. ولكن الفلسطيني يعرف أنه كان دائماً فلسطينياً عربياً وأنه ظل كذلك حتى بعد أن رحل بعضه عن فلسطين. وهذا الشعور هو الذي ضمن استمرارية النضال الفلسطيني وضمن له حق السيادة الفعلية على فلسطين الذي يكاد اليوم يكون قريباً منه وهو يسمع في مؤتمر بيروت اجماع القادة العرب على تأييده.

وقد لا يكون بعيداً اليوم الذي تكون فيه فلسطين عربية ولو على جزء من أرضها بانتظار اليوم الذي تكون فيه فلسطين صاحبة القسم الأكبر من الوجود على خريطتها التاريخية.